موعظة عالم

بقلم أ.د. محمد أديب الصالح

دخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثاً، فقال: ما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا؟

فقيل له: هاهنا رجل يقال له أبو حازم.

فبعث إليه، فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟

فقال له أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني؟

فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟!

فقال: ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها.

قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، مالنا نكره الموت!

قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟

قال أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه خائفاً محزوناً.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري مالنا عند الله يا أبا حازم؟

فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم مالك عند الله.

قال: يا أبا حازم، وأين أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟

قال: عند قوله: (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم).

قال: يا أبا حازم فأين رحمة الله؟

قال: (قريب من المحسنين).

قال: يا أبا حازم، من أحمق الناس؟

قال: من حطّ نفسه في هوى رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟

قال: دعاء المخبتين.

قال: فما أزكى الصدقة؟

قال: جهد المقل.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟

قال: اعفني من هذا.

قال سليمان: نصيحة تلقيها.

قال أبو حازم: إن ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فـسفكوا فيـه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟

فقال بعض جلسائهم: بئس ما قلت يا شيخ.

فقال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال سليمان: يا أبا حازم أصبحنا تصيب منا ونصيب منك.

قال أعوذ بالله من ذلك.

قال: ولم؟

قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات.

قال فأشر علي.

قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير.

فقال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلى الخير بناصيته.

فقال: يا غلام هات مئة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم.

قال لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي.

فكان سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط.

فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني.

قال الزهري: أتشتمني؟

قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقاً؟

قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء وكانت العلماء تفر بدينها منهم، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم، وأتوا به الأمراء واجتمع القوم على المعـصية فـسقطوا وانتكسوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم لم تزل الأمراء تهابهم.

قال الزهري: كأنك إياي تريد وبي تعرض؟

قال: هو ما تسمع.

* حضارة الإسلام – السنة ١٤- العددان: ٨ و٩ شوال وذو القعدة ١٣٩٣هـ - ت٢ ١٩٧٣م.